

غزاة البحر



هربرت جورج ويلز

غزاة البحر

تأليف

هربرت جورج ويلز

ترجمة

صفية مختار

مراجعة

شيماء طه الريدي



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهورة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦/١/٢٠١٧

يورك هاوس، شيشيت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تلفون: +٩٦٣ ٨٣٢٥٢٢ (٤٤)

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٤٣٧

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٨٩٦.

صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٨.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص

هذا الكتاب مُرَحَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: تَسْبُّبُ المُصْنَفَ، الإصدار ٤، ٢٠١٨. جميع

حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

غزا البحر

٧

غزاة البحر

١

قبل الواقعة العجيبة في سيدموث، لم يكن النوع الغريب الذي يُطلق عليه «هابلوتوثيس فيروكس» معروفاً علمياً إلا على نحو عام؛ بالاستناد إلى لامس نصف مهضوم عُثر عليه بالقرب من جزر الأزور، وجسد متحلل نقرته الطيور وقضمته الأسماك، عُثر عليه السيد جينينجس قرب لاندر إندي في أوائل عام ١٨٩٦.

في واقع الأمر، إن رأسقدميات التي تعيش في أعماق البحار هي أكثر الأنواع التي لا نعلم عنها شيئاً في علم الحيوان. فعلى سبيل المثال، كانت الصدفة البحتة هي التي أدت لاكتشاف أمير موناكو لما يقرب من اثنى عشر نوعاً جديداً منها في صيف ١٨٩٥، وكان من بين الأشياء المكتشفة اللامس السالف الذكر؛ فقد تصادف أن قُتل أحد حيتان العنبر بالقرب من تيرسيرا على يد بعض صائدي حيتان العنبر، وأثناء مقاومته الأخيرة كاد أن يهرب إلى يخت الأمير، لكنه تخطاه، وراح يتقلب إلى أسفل، ونفق على بعد عشرين ياردة من دفته. وفيما كان ينمازع الموت في لحظاته الأخيرة؛ إذ به يُلقي عدداً من الأشياء الكبيرة، تمكن الأمير من التقاطها بوسيلة متقدة قبل أن تغرق غير مدرك لغرابتها وأهميتها؛ فقد شغل مروحة اليخت الدافعة، وجعلها تدور في دوامات المياه التي صنعتها حركة المروحة حتى تمكن من إنزال قارب. وكانت هذه الأنواع رأسقدميات كاملة أو أجزاءً منها، بعضها ذو حجم هائل، وكلها تقريباً لا يعرف عنها العلم شيئاً!!

قد يبدو، في الواقع، أن هذه المخلوقات الكبيرة والرشيقـة، التي تعيش في أعماق البحر الوسطـي، لا بد – إلى حد بعيد – أن تظل غير معروفة لنا للأبد؛ لأن وجودها تحت الماء يجعلها أسرع وأخفـًّا من أن تلتقطـها الشـبـاكـ، ولا يمكنـنا الحصول على مثل هذه الأنواع إلا من خلال مثل هذه الصـدـفـ النـادـرـةـ غيرـ المتـوقـعةـ. فـفيـ حـالـةـ «ـهـابـلـوـتـوـثـيـسـ فـيـرـوكـسـ»ـ، عـلـىـ سـبـيـلـ المـثالـ، ما زـلـنـاـ نـجـهـلـ موـطـنـهـ تـحـديـداـ، تـامـاـ مـثـلـماـ نـجـهـلـ بـيـنـةـ تـكـاثـرـ سـمـكـ الرـنـجـةـ أوـ الـطـرـقـ الـبـرـيـةـ الـتـيـ يـسـافـرـ فـيـهاـ سـمـكـ السـلـمـونـ. وـيـقـفـ عـلـمـاءـ الـحـيـوـانـ عـاجـزـينـ تـامـاـ عـنـ تـفـسـيـرـ سـبـبـ ظـهـورـهـ المـفـاجـئـ عـلـىـ سـاحـلـنـاـ. رـبـماـ كـانـتـ وـطـأـةـ هـجـرـةـ الـجـوـعـ هـيـ الـتـيـ دـفـعـتـهـ إـلـىـ هـنـاـ بـعـيـدـاـ عـنـ الـأـعـماـقـ. غـيرـ أـنـهـ قـدـ يـكـونـ مـنـ الـأـفـضـلـ أـنـ نـتـجـنـبـ بـالـضـرـورـةـ الـدـخـولـ فـيـ نـقـاشـ غـيرـ حـاسـمـ، وـنـبـدـأـ عـلـىـ الـفـورـ بـسـرـدـ قـصـتناـ.

كان أول إنسان تقع عيناه على هـابـلـوـتـوـثـيـسـ حـيـ – وأـولـ إـنـسـانـ يـنـجـوـ بـحـيـاتـهـ؛ إـذـ ثـمـةـ بـعـضـ الشـكـ الـآنـ فيـ أـنـ مـوـجـةـ الـوـقـيـاتـ أـثـنـاءـ السـبـاحـةـ وـحـوـادـثـ الـقـوـارـبـ الـمـسـافـرـةـ عـلـىـ سـاحـلـ كـورـنـوـولـ وـدـيـفـونـ فيـ أـوـاـئـلـ مـاـيـوـ كـانـتـ نـتـيـجـةـ لـهـذـاـ السـبـبـ – تـاجـرـ شـايـ مـتـقـاعـدـاـ يـدـعـىـ فـيـزـونـ، كـانـ يـقـيمـ فـيـ نـزـلـ فـيـ سـيـدـمـوـثـ. كـانـ ذـلـكـ وـقـتـ الـعـصـرـ أـثـنـاءـ سـيـرـهـ عـبـرـ طـرـيـقـ الـمـنـهـدـرـ بـيـنـ سـيـدـمـوـثـ وـخـلـيـجـ لـادـرـامـ. تـتـسـمـ الـمـنـهـدـرـاتـ فـيـ هـذـاـ الـاتـجـاهـ بـالـارـتـقـاعـ الشـدـيدـ، وـلـكـ فـيـ مـوـضـعـ مـاـ عـلـىـ سـطـحـهـ الـأـحـمـرـ يـوـجـدـ مـاـ يـشـبـهـ السـلـالـمـ. كـانـ قـرـيبـاـ مـنـ ذـلـكـ الـمـكـانـ عـنـدـمـاـ جـذـبـ اـنـتـبـاهـهـ مـاـ حـسـبـهـ لـلـوـهـلـةـ الـأـوـلـىـ سـرـبـاـ مـنـ الطـيـورـ يـتـعـارـكـ عـلـىـ كـسـرـةـ طـعـامـ تـلـمـعـ فـيـ ضـوـءـ الـشـمـسـ وـتـشـعـ ضـوـءـاـ أـبـيـضـ ضـارـبـاـ إـلـىـ الـوـرـديـ. وـلـاـ كـانـ الـبـرـ مـنـسـرـاـ، لـمـ يـكـنـ هـذـاـ الشـيـءـ أـسـفـلـ مـنـهـ بـمـسـافـةـ كـبـيرـةـ فـحـسـبـ، بلـ كـانـ عـلـىـ مـسـافـةـ بـعـيـدـةـ مـنـ رـقـعـةـ وـاسـعـةـ مـنـ الصـخـورـ مـغـطـاةـ بـالـعـشـبـ الـبـرـيـ الدـاـكـنـ، وـتـخـالـلـهـاـ الـبـرـكـ الـفـضـيـةـ الـلـامـعـةـ الـتـيـ خـلـفـهـاـ الـمـدـ. وـبـإـلـاـضـافـةـ إـلـىـ ذـلـكـ، فـقـدـ أـبـهـرـ سـطـوـعـ الـمـاءـ الـبـعـيـدـ بـصـرـهـ.

وـفـيـ لـحـظـةـ، وـبـعـدـ أـنـ نـظـرـ ثـانـيـةـ لـهـذـاـ الشـيـءـ، أـدـرـكـ أـنـهـ كـانـ مـخـطـئـاـ فـيـ حـكـمـهـ؛ إـذـ طـوـقـ عـدـدـ مـنـ الطـيـورـ كـانـ فـيـ أـغـلـبـ مـنـ الـغـرـبـانـ وـالـنـوـارـسـ، وـكـانـتـ النـوـارـسـ تـلـمـعـ عـلـىـ نـحـوـ يـعـيـ الـبـصـرـ عـنـدـمـاـ يـنـعـكـسـ ضـوـءـ الـشـمـسـ عـلـىـ أـجـنـحـتـهـ، وـتـبـدـوـ ضـيـلـةـ مـقـارـنـةـ بـالـشـيـءـ الـذـيـ تـتـصـارـعـ مـنـ أـجـلـهـ. وـلـعـلـ تـفـسـيـرـاتـ الـأـوـلـيـةـ غـيرـ الـوـافـيـةـ هـيـ مـاـ زـادـتـ مـنـ فـضـولـهـ.

وـلـمـ يـجـدـ شـيـئـاـ أـفـضـلـ مـنـ أـنـ يـسـلـيـ نـفـسـهـ بـمـاـ يـرـاهـ، عـزـمـ عـلـىـ أـنـ يـجـعـلـ مـنـ هـذـاـ الشـيـءـ، أـيـاـ كـانـتـ مـاهـيـتـهـ، مـحـورـ نـزـهـةـ مـاـ بـعـدـ الـظـهـيرـةـ، بـدـلـاـ مـنـ خـلـيـجـ لـادـرـامـ، ظـلـنـاـ مـنـهـ أـنـهـ رـبـماـ كـانـ سـمـكـةـ ضـخـمـةـ مـنـ نـوـعـهـ، سـاقـتـهـاـ الـمـاصـادـفـةـ إـلـىـ الشـاطـئـ، وـتـقـلـبـ مـنـ وـطـأـةـ مـاـ أـلـمـ بـهـ. فـأـسـرـعـ مـنـ فـورـهـ عـبـرـ درـجـاتـ السـلـمـ الـمـنـهـدـرـ، مـتـوـقـفـاـ كـلـ لـلـثـلـاثـينـ قـدـمـاـ أـوـ نـحـوـ ذـلـكـ؛ لـيـلـتـقـطـ أـنـفـاسـهـ وـيـتـفـحـصـ تـلـكـ الـحـرـكـةـ الـغـامـضـةـ.

عند سفح المنحدر كان الرجل أقرب بالطبع من الشيء المراد من ذي قبل، إلا أن ذلك الشيء أصبح الآن في عكس اتجاه الجزء الساطع من السماء، أسفل الشمس، ما جعله يبدو جسمًا معتمًا وعصيًّا على التمييز. وبات كل ما كان يبدو ورديًّا فيه مخفىً الآن بفعل حاجز من الصخور المعيشة. ورغم ذلك أدرك أن هذا الشيء مكون من سبعة أجسام مستديرة منفصلة أو متصلة، وأن تلك الطيور ظلت تتنعّق وتصرخ باستمرار حول ذلك الشيء، لكن حال خوفُها دون اقترابها منه بشدة.

استبد الفضول بالسيد فيزون، فبدأ يتحسس خطواته بين الصخور المتأكلة بفعل الموج، ولما وجد أن العشب البحري المبتل الذي يغطي الصخور بكثافة جعلها زلقة للغاية، توقف وخلع نعليه والجورب وشمر سرواله لأعلى ركبتيه. ولم يكن له هدف بالطبع إلا تجنب التعرّض في البرك الصخرية المحيطة به، ولعله كان مثل بقية البشر سعيدًا بوجود عذر يتيح له استرجاع أحاسيس الصبا ولو للحظة. وعلى أية حال، فإن هذا التصرف، بلا شك، هو ما يدين له بالفضل في إنقاذ حياته.

راح الرجل يقترب من نقطته المنشودة مطمئنًا كل الاطمئنان؛ نظرًا لما تكفله هذه الدولة لمواطنيها من ضمان كامل ضد أضرار كل أشكال الحياة الحيوانية. كانت الأجسام المستديرة تتحرك للأمام والخلف، بيد أنه لم يدرك الطبيعة البشعة للشيء الذي اكتشفه إلا عندما اعتلى الحواجز الصخرية سالفة الذكر، ففوجئ بما رأى.

تفككت أجزاء الأجسام المستديرة عند ظهوره من فوق الحيد، واتضح أن الشيء وردي اللون ما هو إلا بقايا جسد بشري التّهم جزء منه، لكنه لم يكن قادرًا على تمييز إذا ما كان هذا الجسد لرجل أم لامرأة. وكانت هذه الأجسام المستديرة مخلوقات جديدة بشعة المنظر، ذات شكل يشبه إلى حد ما الأخطبوط، ولوامس ضخمة وطويلة جدًا ومرنة ملتفة على الأرض عدة مرات. وكان لجلدها ملمس براق بشع يشبه الجلد اللامع. أما الثنية النازلة للف المحاط باللوامس، والزائدية الغريبة الموجودة في هذه الثنية، بالإضافة إلى اللوامس والعيون الكبيرة الذكية، فقد أعطت هذه المخلوقات منظرًا أشبه بوجه مشوّه. كانت أجسامها في حجم خنزير كبير، في حين بدا طول اللوامس وقد بلغ عدة أقدام حسب تقديره. واعتقد أن ثمة سبعة أو ثمانية على الأقل من هذه المخلوقات. وعلى بعد عشرين ياردة منها، وفي وسط زَبَد أمواج المد العائد الآن، بُرِز اثنان آخران من هذه المخلوقات من البحر.

قبعت أجسام تلك المخلوقات هامدة على الصخور، وراحت أعينها تحدق إليه بنظرات تطل منها النوايا الخبيثة، لكن لم يبُد السيد فيزون خائفًا أو مدرگًا أنه في خطر من أيٍ

نوع. ربما عزت ثقته تلك إلى فتور تصرفاتها. غير أنه كان مفزوغاً بطبيعة الحال وقلقاً وساخطاً بشدة من تلك المخلوقات المقرفة التي تقتات على اللحم البشري. فقد ظن أن تلك المخلوقات عثرت على جسد غريق بطريق المصادفة والتهمة. وصاح فيها قاصداً بإعادتها، وعندما وجدها لم تترحّز عن موضعها قيد أنملة، وأنها تحدق فيه، التقط صخرة كبيرة وقذف بها أحدها.

وحينئذ راحت تفرد لومسها ببطء، وبدأت تتحرك صوبه زاحفة في تؤدة في بادئ الأمر، مصدرة صوت قرقة خفيفاً بعضها لبعض.

وفي لحظة أدرك السيد فيزون أنه في خطر؛ فصاح مرة أخرى، وألقى بفرديته حذائه الطويل، وعلى الفور شرع يتحرك بقفزة. توقف على بعد عشرين ياردة، والتفت ظناً منه أنها مخلوقات بطيئة، فإذا به يلمح لومس قائلها وقد غطت الحَيْدُ الصخري الذي كان يقف عليه منذ لحظة!

وهنا صاح مرة أخرى، لكن ليس صيحة تهديد بل صيحة فزع، وبدأ يقفز ويهرب ويذل ويختوّض في المساحة الشاسعة التي تحول بينه وبين الشاطئ. وفجأة بدت الصخور الحمراء المرتفعة على مسافة شاسعة، ورأى عاملين بدأوا في غاية الضاللة، كما لو كانوا مخلوقين من عالم آخر، كانوا منهمكين في إصلاح الطريق المدرج، ولا يخامرهما أيُّ شعور بصراع البقاء الدائِر بالأسفل. وفي لحظة ما سمع المخلوقات تتنشر الماء من حولها في البرك خلفه على مسافة لا تزيد عن الثنائي عشر قدماً، وفي لحظة أخرى انزلق وكاد أن يسقط.

وراحت تطارده حتى سفح المنحدرات، ولم تراجع إلا عندما انضم إليه العاملان عند سفح الطريق المدرج المؤدي للمنحدر. وقذفها ثلاثة بالحجارة لبعض الوقت، ثم هرعوا إلى قمة المنحدر، ومنها إلى الطريق المؤدي إلى سيدموث؛ لطلب المساعدة والحصول على أحد القوارب، وإنقاذ الجثة المنهكة من قبضة هذه المخلوقات البشعة.

وكان السيد فيزون لم يكن قد مر بقدر كافٍ من الخطر في ذلك اليوم، فإذا به يذهب على متن القارب ليوضح مكان مغامرته بالتحديد.

ومع انحسار المد، كان لزاماً اتخاذ طريق آخر أكثر طولاً للوصول إلى ذلك المكان، وعندما نزلوا أخيراً من طريق الدرج، كانت الجثة المشوهة قد اختفت. وأصبح الماء جارياً،

وبدأ يغمر الصخور الزلقة واحدة تلو الأخرى، أما الرجال الأربع على متن القارب – وهم العاملان والراكبي والسيد فيزون – فقد صرفا انتباهم عن تحديد المسافة التي تفصلهم عن الشاطئ، وركزوا على الماء أسفل القارب.

في البداية لم يتثنّ لهم رؤية الكثير أسفل منهم، اللهم إلا غابة معتمة من طحالب اللاميناريا، وأسماكاً تندفع في الماء بين الحين والآخر. كانت عقولهم منصبة على المغامرة، وأعربوا بوضوح عن خيبة أملهم. غير أنهم سرعان ما رأوا أحد هذه الوحوش يسبح عبر الماء متوجهاً صوب البحر في حركة دائرية غريبة تراءت للسيد فيزون وكأنها تشبه الحركة الدائرية لمنطاد. وبعد ذلك مباشرة اضطربت أوراق طحالب اللاميناريا على نحو غير عادي وتباعدت لبرهة، وشُوهد ثلاثة من هذه الوحوش كأجسام معتمة وهي تتصارع على ما كان على الأرجح بقایا الرجل الغريق. وفي لحظة غمرت أشرطة الطحالب الخضراء الكثيفة ذلك الجمع المتضور جوغاً.

ورغم ذلك، شرع الرجال الأربع، وقد غمرهم حماس شديد، يضربون الماء بالمجاديف ويصيحون، وسرعان ما رأوا حركة مضطربة بين الأعشاب البحرية. فتوقفوا ليروا بمزيد من الوضوح، وما إن سكن الماء حتى بدا لهم قاع البحر الواقع بين الأعشاب البحرية بأكمله وكأنه مرصّع بالعيون.

فصاح أحدهم: «خنزير قبيح! يا للهول، يوجد عشرات منهم!»

وعلى الفور بدأت هذه الأشياء ترتفع عبر الماء من حولهم. وقد وصف السيد فيزون للكاتب في السابق هذه الانتفاضة المروعة من وسط خضرة اللاميناريا المتمايلة. بدا له الأمر وكأنه قد استغرق ردحاً من الزمن، لكنه على الأرجح كان مسألة ثوانٍ قليلة فحسب. لم يكن ثمة شيء سوى العيون لبعض الوقت، ثم تحدث عن لوامس تندفع وتغادر أوراق العشب في اتجاهات عديدة. بعدها أخذت هذه الأشياء تتضخم إلى أن احتفى القاع في النهاية بفعل أشكالها الملتفة على نحو متداخل، وأطلت أطراف لوامسها على نحو منذر بالخطر في كل مكان في الهواء فوق عباب الماء.

تقدّم أحدها في جسارة إلى جانب القارب، وتعلق به بثلاثٍ من لوامسه ذات الماصّات، وقدف أربع لوامس أخرى على الحافة العليا من جانب القارب، كما لو كانت نيته إما قلب القارب أو تسلقه. وفي الحال أمسك السيد فيزون بخطاف القارب وضرب به اللوامس الطيرية في غضب، وأجبر المخلوق على التوقف. وضربه المراكبي على ظهره، وأطاح به تقريرياً من فوق سطح القارب، حيث كان يستخدم مجده لمقاومة هجوم مشابه على الجانب الآخر.

من القارب. غير أن اللوامس على كلا الجانبين أرخت قبضتها فوراً، وانزلقت لتعيّب عن النظر، وسقطت ناثرة رذاذ الماء من حولها.

قال السيد فيزون وهو يرتعش بشدة: «من الأفضل أن نخرج من هنا». وذهب إلى ذراع الدفة، فيما جلس المراكبي وأحد العمال وأخذنا يجذفان. ووقف العامل الآخر في مقدمة القارب ممسكاً بخطاف القارب، تأهباً لضرب أية لوامس أخرى قد تظهر. ولا يبدو أن أحداً قال شيئاً آخر غير ذلك؛ فقد أعرب السيد فيزون عن شعورهم العام الذي لا يمكن تحسينه. وفي ظل جو من الصمت والخوف، ووسط وجوه كساها الشحوب والبؤس، انطلقوا يهربون من هذا المكان الذي بلغوه دون قصد بفضل رعونتهم الشديدة.

ولم تك المجاديف تنزل في الماء حتى أحاطت بها حبال قاتمة أفعوانية مستدقة الطرف، والتفت حول الدفة، وعادت اللوامس مرة أخرى زاحفة على جانبي القارب في حركة دائيرية. أمسك الرجال بمجاديفهم وجذفوا، لكن الأمر كان أشبه بمحاولة تحريك قارب في طوف عائم من العشب البحري. وصاح المراكبي: «ساعدوني هنا!»؛ فاندفع السيد فيزون والعامل الثاني لمساعدته في سحب المجادف.

ثم نهض الرجل الذي يحمل خطاف القارب — وكان اسمه إيوان أو إيوين — وهو يطلق سباباً، وبدأ يضرب للأسفل من جانب القارب، لأن بعد حد ممكناً، في اتجاه مجموعة اللوامس التي تجمعت حينها على طول قاع القارب. وفي الوقت نفسه، وقف الرجالان المجدفان كي يستطيعا إحكام قبضتهما على المجاديف لتحرิกها على نحو أفضل. وسلم المراكبي مجدافه إلى السيد فيزون الذي أخذ يجذف باستماتة، بينما فتح المراكبي مطواة كبيرة ومال على جانب القارب، وبدأ يقطع الأذرع الأفعوانية المسكّة بعمود المجداف.

وبينما كان السيد فيزون يترنح من حركة القارب المتأرجحة المتهازة، مطيناً على أسنانه ومقطوع النَّفَس، وأوردة يديه تتنفس وهو يجذف بالمجادف، ألقى نظرة فجأة إلى داخل البحر. وعلى بعد ما لا يزيد عن خمسين ياردة، وعبر الأمواج الطويلة المتذرعة للدم القادر، إذا بقارب كبير يقف تجاههم على منته ثلاثة نساء وطفل صغير. كان ثمة مراكبي يجذف، ووقف رجل ضئيل الحجم ذو قبعة من القش، ذات شريط وردي وملابس بيضاء، يلوح لهم في مؤخرة القارب. بطبيعة الحال، فكر السيد فيزون للحظة أن يطلب المساعدة منهم، ثم فكر في الطفل. فترك مجدافه على الفور وأخذ يلوح بذراعيه في حركة مضطربة ومحمومة، ويصيح في أصحاب القارب أن يبتعدوا «حَبَّا لَهُ!» ولعل هذا يكشف الكثير عن تواضع وشجاعة السيد فيزون الذي يبدو أنه لم يدرك أن تصرفه في هذا الموقف ينطوي

على أيّ بطلة. وفي الحال غرق المداف الذي تركه من يده، ثم عاود الظهور فوراً، وكان طافياً على بعد نحو عشرين ياردة.

في الوقت نفسه شعر السيد فيزون بالقارب يميل بعنف تحته، وانطلقت صرخة مبحوحة وصيحة ذعر طويلة من المراكبي، هيل، جعلته ينسى أمر المتنزهين في القارب تماماً. فاللتفت ليرى هيل جالساً القرفصاء قرب ماسكة المداف الأمامية، ووجهه يتشنّج رعياً، وذراعه اليمنى فوق جانب القارب ومسحوية بشدة للأسفل. وأخذ يطلق سلسلة من الصيحات الحادة القصيرة قائلًا: «آه! آه! آه! — آه!» اعتقاد السيد فيزون أنه لا بد أنه كان يطعن اللوامس أسفل خط الماء فأمسكت به، لكن بالطبع كان مستحيلًا تماماً حينها الجزم بما كان يحدث على نحو مؤكّد. كان القارب مائلاً، حتى إن الحافة العلوية من جانبه كانت على بعد عشر بوصات من الماء، وكان كل من إيوان والعامل الآخر يضرّبان الماء بالداف وخطاف القارب على جانبيه ذراع هيل. وتلقائياً ذهب السيد فيزون إلى الجهة المقابلة كي يوازن ثقلهم.

بعد ذلك بذل هيل جهداً مضنياً كي ينهض؛ نظراً لضخامته وقوته، ونهض شبه واقف. وأخرج ذراعه من الماء بالفعل، وقد تعلق بها كتلة متشابكة مما يشبه الحبال، بُنية اللون، ثم ظهرت للحظة على سطح الماء عيناً أحد الوحوش التي كانت قد أمسكت به، محدثتين على نحو مباشر وفي إصرار. وازداد ميل القارب أكثر وأكثر، واندفع الماء البني الضارب إلى الخضراء يغير جانب القارب في غزارة. ثم انزلق هيل وسقط على ضلوعه عبر الجانب، وسقط ذراعه وكتلة اللوامس المحيطة به في الماء مرة أخرى. فانقلب وضرب بحذائه الطويل ركبة السيد فيزون حين اندفع ذلك السيد النبيل ليمسك به. وفي لحظة أخرى هاجمته لوامس جديدة عند خصره وعنقه، وبعد صراع عنيف لم يطُل كثيراً كاد القارب على أثره أن ينقلب، سقط هيل من فوق القارب. واعتدل القارب في حركة عنيفة أطاحت بالسيد فيزون إلى الجانب الآخر، واختفى الصراخ الدائير في الماء عن عينيه.

وقف متربّحاً للحظة كي يستعيد توازنه، وعندما استعاده أدرك أن الصراخ والمد القادم متدفعاً قد حملهم بالقرب من الصخور المغطاة بالعشب البحري مرةً أخرى. وعلى بعد لم يتجاوز أربع ياردات من سطح صخري مرتفع ظل القارب يرتفع في حركات إيقاعية فوق زَيْد المَد والجَزْر المتدفع. وفي لحظة انتزع السيد فيزون المداف من إيوان وضرب به ضربة قوية، ثم تركه، وجرى نحو مقدمة القارب وقفز. وشعر بانزلاق قدميه على الصخر، وبجهد محموم قفز مرةً أخرى صوب كتلة صخرية أخرى. بَيْد أنه تعثر في هذه الكتلة وسقط على ركبتيه ثم نهض ثانيةً.

صاحب أحدهم: «احترس!» ثم صدمه جسم كبير رمادي باهت، وطُرِحَ أرضاً في إحدى برك الماء والجزر بيد أحد العمال، وأثناء سقوطه سمع صيحات مكتومة ومخنوقة اعتقاد في حينها أنها آتية من هيل. ثم وجد نفسه يتعجب من حدة وتنوع صوت هيل. وقفز فوقه أحد الأشخاص، وأثناء عبوره غمرته دفقة من ماء مزبد. ووقف على قدميه سريعاً والماء يتصبب منه، ودون أن ينظر إلى البحر ركض صوب الشاطئ بأقصى سرعة يسمح بها ما ألم به من ذعر. وعلى المساحة المسطحة التي تَعِجُ بالصخور المتناثرة المتداة أمامه سقط العاملان واحداً أمام الآخر، يفصل بينهما عدة ياردات.

وأخيراً نظر من فوق كتفه، ولما رأى أنه غير ملحوظ التفت للوراء، وأصابته الدهشة؛ فمنذ لحظة خروج الرأسقدميات من الماء أصبح يتصرف في عجلة لا تتيح له إدراك تصرفاته إدراكاً كاملاً. وبدا في تلك اللحظة كأنما أفاق فجأة من كابوس مرير.

لم يكن ثمة شيء سوى السماء الصافية التي تشتعل فيها شمس الأصيل، والبحر يمور تحت سطوعها الشديد، وزبد الأمواج المتكسرة الرقيق الناعم، والحواف الصخرية المنخفضة الطويلة ذات اللون الداكن. وكان القارب الذي عاد لوضعه الصحيح طافياً، يصعد ويهبط برفق على موج البحر على مسافة اثنين عشرة ياردة من الشاطئ. واختفى هيل والوحش، وكل التوتر والاضطراب اللذين صاحبا ذلك الصراع الضاري من أجل الحياة، وكأن شيئاً لم يكن.

كان قلب السيد فيزون يخفق بعنف، وكان يرتجف حتى أنامله، وكانت أنفاسه عميقه.

كان ثمة شيء ناقص. لبعض ثوان لم يستطع التفكير بوضوح كافٍ في ذلك الشيء الذي قد يكون ناقصاً. فهو الشمس، أم السماء، أم الصخور — ماذا كان ذلك الشيء؟ ثم تذكر القارب الذي كان يحمل على متنه مجموعة المتنزهين. لقد اخترق. وراح يتساءل إن كان من وحي خياله. والتفت فرأى العاملين جالسين جنباً إلى جنب أسفل الكتل الصخرية البارزة في تلك المنحدرات الشاهقة وردية اللون. وتربّد فيما إذا كان عليه القيام بمحاولة أخيرة لإنقاذ هيل. وفجأة بدا حماسه البدني وقد تخلى عنه، وتركه بلا هدف وبلا حيلة. واتجه صوب الشاطئ وهو يتعثر ويشق طريقه بصعوبة نحو رفيقينه.

نظر إلى الوراء مرةً أخرى، ووجد هذه المرة قاربَيْن يطفوان، وكان القارب الأبعد داخل البحر يتأرجح وقد انقلبت قاعدته إلى أعلى.

وهكذا ظهرت الرأسقدميات من فئة «هابلتوثيس فيروكس» على ساحل ديفونshire. وكان هذا هو الاعتداء الأكثر خطورة حتى ذلك الحين. وعلى نحو واضح تشير رواية السيد فيزون، بالإضافة إلى موجة الوفيات من جراء ركوب القوارب والسباحة التي أشارت إليها سابقاً، علاوة على غياب الأسماك من السواحل الكورنية في ذلك العام، إلى وجود مجموعة من وحوش قاع البحر الضاربة تطوف ببطء عبر ساحل المنطقة تحت الجزرية. أعلم أنه قيل إن الهجرة بسبب الجوع هو ما دفع بها إلى هنا، إلا أنني أفضل تصديق نظرية هيمني البديلة. يعتقد هيمني أن مجموعة أو سرباً من هذه المخلوقات ربما أصبحت مغمرة باللحم البشري بسبب سفينة غمرها الماء وأغرقتها بينها، وأنها تجولت بحثاً عنه خارج منطقتها المعتادة أولاً من خلال ترصد السفن وتعقبها، ثم القدوم إلى شواطئنا في أعقاب قوافل التجارة عبر الأطلنطي. ورغم ذلك، فإن مناقشة حُجج هيمني المعقوله التي عَبر عنها على نحو مثير للإعجاب ستكون خارجة عن السياق.

يبدو أن شهية ذلك السرب قد أشعها اصطياد أحد عشر شخصاً؛ لأنه حسبما تأكّد حتى هذه اللحظة، كان على متن القارب الثاني عشرة أفراد، وبالطبع لم تُصدر تلك المخلوقات أية أدلة أخرى على وجودها خارج سيدموث في ذلك اليوم. وقام على حراسة الساحل ما بين سيتون وبودلي سولتيتون طوال ذلك المساء وأثناء الليل أربعة من قوارب فرقة خدمات الحماية، وكان الرجال على متن تلك القوارب مدججين بالحراب وسيوف الملاحين المقوسة، وعندما أقبل المساء انضم إليهم عدد من الفرق المسلحة المشابهة نسبياً نظمها أفراد مستقلون. ولم يشترك السيد فيزون في أيٍ من هذه الفرق.

وفي منتصف الليل تقريباً سمعت صيحات من قارب على بعد بضعة أميال في البحر ناحية جنوب شرق سيدموث، وشُوهد مصباح يلوح بطريقة غريبة للأمام والخلف وللأعلى ولأسفل. وأسرعت القوارب القريبة على الفور صوب هذه الاستغاثة. وكان المخامرلون الموجودون على متن هذا القارب – وهم بحار وكاهن وتلميذان – قد رأوا بالفعل الوحوش تمر أسفل قاربهم. ويبدو أن هذه المخلوقات كانت فسفورية شأنها شأن معظم كائنات قاع البحر، وكانت تطفو على عمق ما يقرب من خمس قامات، أو نحو ذلك، مثل المخلوقات التي تسبح في ظلمة الماء تحت ضوء القمر، وتقلاصت لومسها، وكانت تتقلب كما لو كانت نائمة، وتتحرك ببطء في شكل مثلث صوب الجنوب الشرقي.

روى هؤلاء الأشخاص القصة على عدة أجزاء معتبرين عنها بحركة أيديهم؛ قائلين إن قارباً من بجانبهم في بادئ الأمر، تلاه آخر. وفي النهاية تكون أسطول صغير مكون من

ثمانية أو تسع قوارب مجتمعة، وصدر منه ضجيج يشبه ثرثرة السوق شق سكون الليل. ولم يكن ثمة استعداد ولو قليلاً لمطاردة هذا السرب؛ إذ كان الأشخاص مفتقرين للأسلحة وللخبرة اللازمة مثل هذه المطاردة غير مضمونة النتائج، وعلى الفور — وربما بارتياح مؤكّد — اتجهت القوارب صوب الشاطئ.

والآن سنقصص الحقيقة التي ربما تكون الأكثر إدهاشاً في هذه الغارة المدحشة برمّتها: نحن لا نملك ولو أقل القليل من المعلومات بشأن تحركات السرب فيما بعد، على الرغم من أن ساحل الجنوب الغربي كله كان في حالة استنفار في ذلك الحين. غير أنه قد يكون من المهم ذكر أنه عُثر على أحد حيتان العنبر طرحة الماء قبالة جزيرة سارك في الثالث من يونيو. وبعد أسبوعين وثلاثة أيام من حادثة سيدموث، جاء إلى شاطئ كاليه أحد الرأسقدميات الحية من نوع «هابلوتونيس». وما يؤكد أنه كان حياً أن العديد من شهود العيان رأوا لوماسه تتحرك بطريقة تشنجية. بيد أن الأرجح أنه كان في النزع الأخير؛ فقد كان يوجد شخص يُدعى بوشيت يحمل معه بندقية وأصابه بها.

كان ذلك آخر ظهور لأحد «الرأسقدميات» الحية. ولم يشاهد أحد أياً منها على الساحل الفرنسي. وفي الخامس عشر من يونيو دفع الماء جسم أحداً شبه كامل بالقرب من شاطئ توركوي، وبعد بضعة أيام التقط قارب من المحطة البيولوجية البحرية يقوم باصطياد المحار قبالة بليموث نوعاً آخر متعرضاً به جرح عميق إثر ضربة بسيف الملاحين. ومن المستحيل الجزم بالطريقة التي مات بها النوع الأول. وفي آخر أيام يونيو، كان السيد إيجبيرت كين، وهو رسام، يسبح بالقرب من نيولين عندما رفع يديه، وصرخ وغرق في الماء. ولم يبذل صديقه الذي كان يسبح معه أية محاولة لإنقاذه، بل سبح نحو الشاطئ على الفور. وهذه آخر حقيقة يمكن قوله بشأن هذه الغارة غير العادية القادمة من أعماق البحار. ومن السابق لأوانه تحديد إذا ما كانت تلك المخلوقات الرهيبة هي الأخيرة من نوعها، إلا أنه يُعتقد، وهو المرجو بالتأكيد، أنها قد عادت الآن وبغير رجعة إلى أعماق البحار الوسطى التي جاءت منها، على نحو في غاية الغرابة والغموض.

